ظاهرة من التراث عن المرأة

في الصيف الماضي رأيت في أسواق الرياض حملات البلدية وهي تتعقب جماعات النسوة اللاتي اعتدن البيع في بعض أركان السوق وزواياه .

تساءلت عن السبب ولكن الجواب معروف كما سمعناه في السابق ، إنهم سيقولون : إن طريقة البيع هذه تشوه منظر السوق أمام الزوار ألأجانب ، كما سيقولون : إنه مظهر يضر بالسمعة العامة .

والعجيب في الأمر أن كل ما يقوله الأجنبي نأخذ به ونصدقه ، ولو كان فكرًا مغلوطًا يهمل البعد التاريخي والوظيفة الاجتماعية والثقافية لبعض الظواهر في مثل هذه الأمكنة العامة .

لا أنسى ذلك المنظر الذي رأيت فيه فرقة البلدية تطرد هؤلاء النسوة البائعات وترمي برزقهن في صناديق القمامة ، وهن اللواتي يطلبن الرزق الحلال بطريقة شريفة بمظهرهن المحتشم ، وفي ملابسهن التقليدية .

إنني أملك نظرة مختلفة عما يرونه ، ذلك لأنني أشعر باحترامهن وضرورة الاعتزاز بهن ، لأنهن جزء من ماضينا وتراثنا الذي من واجبنا أن لا نتنكر له ، فهن يمثلن وجهًا مشرفًا لنشاط المرأة وسلوكياتها في المجتمع .

ومن واجبنا أن نفكر بهنّ ونساعدهن ، ونأخذ بيد من يرغب المساعدة ، ويملك الإمكانية ، وبهذا نستطيع أن نخفف من هذه الظاهرة إذ ليس الحل السليم هو بالقضاء على هذه الظاهرة ومقاومتها بأسلوب جاف لا يصدر عن فهمٍ لها وطريقة سليمة في التعامل معها .

فكما أننا منذ سنوات عندما تطرقنا إلى ظاهرة البداوة في مجتمعنا ، فوجدنا أن علماءنا لم يؤيدوا فكرة القضاء عليها ، بل اعتبرت هذه الظاهرة جزءًا من تاريخنا وماضينا المشرق ، مثال على ذلك أن سيد هذه الأمة محمدًا ﷺ قد أرسله أهله إلى الصحراء عند أهل البداوة ليتربى فيها عددًا من السنين في طفولته .

فمعيشة البداوة هذه تساعد على غرس القيم والعادات الأصيلة ، وتربي الطفل على صفاء الذهن ووضوح الرؤيا ، كما أنها تمثل حياة البساطة .

وكانت السياسة المتبعة تجاههم هي مساعدة من يرغب منهم في حياة الاستقرار بدلًا من التنقل من مكانٍ إلى آخر ، وفي هذا ما يساعدهم على العمل في مجال الزراعة أو أي نشاط اقتصادي آخر .

كذلك حالنا مع ظاهرة بيع المرأة في الأسواق الشعبية بطريقتها البسيطة هذه .

إنها المثل الحي من الماضي المشرف لنشاط المرأة وسلوكياتها في الحياة الشعبية العامة ، وليست ذكرى في متحف أثري .

كما فيها تصحيح للأفكار التي تتكلم عن حرية المرأة وحقوقها كما يراها البعض على طريقة الغرب ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فهي مثال واقعي أمام الفكر المتعصب الذي يحرم المرأة من أبسط حقوقها التي أعطاها لها الشرع ، فيجعل من البيت سجنًا لها .

فهي المرأة التي تساعد أسرتها وتساهم في نشاط المجتمع وتخاطب الرجل بإنسانيتها لا بمظهرها وغرائزها .

أضواء على المشروع الاستناري للعولمة الغربية

إن من الأهمية أن نذكر أنه عندما يعود أحد علماء الاجتماع الغربي إلى بدايات المشروع الاستناري للعولمة الغربية ويُنبه إلى وجود الاستنارة المظلمة في طياته ، فهو يتحدث عن الإشكالية الهوبزية نسبة إلى العالم هوبز ، أي إشكالية المجتمعات التي تدور في إطار العقلانية المادية ، وكيف يمكن تأسيس مجتمع يدور كل فرد فيه حول منفعته أو متعته الشخصية ، هذا وقد تعالت كثير من الأصوات في الغرب مطالبة بمراجعة أطروحات عصر الاستنارة المضيئة للعولمة في ضوء ما رأوا أنها تكشف من ظلمة أدركها دعاة الاستنارة الغربية منذ البداية .

لقد أصبح الحديث عن الاستنارة المضيئة أمرًا صعبًا تحيط به الشبهات ، واكتسبت دعوى الاستنارة المظلمة مصداقية عالية .

وبمعنى آخر فإن حال الإنسان الحديث نفسه غدا دليلًا واضحًا على صدق مقولات الاستنارة المظلمة ، وشأن الإنسان وهو يتحرك في إطار العقلانية المادية .

لقد أصبح هذا الإنسان الحديث ذاتًا مشتتًا لتشغل مركزًا ، وعرف بوصفه مجموعة من الدوافع والحاجات التي ليس لها مضمون أخلاقي أو ذاتًا ذات مضمون جوانبي مستقل .

لقد أصبح الإنسان كيانًا مرتبطًا تمامًا بأنماطه الاستهلاكية ، أو علاقاته الجنسية العابرة أو الموضات الجديدة ، أو تجربة من تجارب الميديا «الإعلام» ، أي : أنه

أصبح إنسانًا ذا بعد واحد «ماركوز» مجرد عقل أداتي «مدرسة فرانكفورت» شيئًا مجردًا من القَدْاسَة والسمات الشخصية والإنسانية .

إن ما سبق فهو يمثل الانتقال من العلمانية الجزئية إلى العلمانية الشاملة ، وإن جوهر هذه العملية هو عبارة عن عملية تفكيك الإنسان وبمعنى أصح فهي عملية تقويض يقوم بها الفكر العلماني الشامل للإنسان .

إنه لا يقتصر على أن يكون مشروعًا تفكيكيًا تقويضيًا فحسب ، لكن هو مشروع يقوم بعملية تأسيس ، فهو يعيد تركيب الكون على أساس نموذج الطبيعة المادة ، والمطلقات العلمانية المختلفة التي تَرُدُّ الإنسان إلى هذا العنصر المادي ، أو ذلك التفكيك الذي ينزع السر عن الظواهر ، فمنذ عصر الاستنارة يرى الكثير من المستنيرين أن أهم مهام العقل هو نزع الأسرار عن الظواهر ، ومنها الإنسان بتفكيك هذه الظاهرة وردها إلى قوانين الحركة المادية ورؤيتها في إطار الواحدية المادية ، وسنرى كيف أن الفكر الفاسد أو المنحرف لابد أن يأت بنتائج فاسدة أو منحرفة .

إن من الأهمية أن نذكر مدى تأثيرات العولمة على ثقافة أفراد مجتمعنا بما يضمنه ذلك من ثقافة الرجل وثقافة المرأة ، وواقع جماعاته الأسرة وغيرها ، وثقافة مجتمعنا وكل الجماعات التي تجمعنا وتوحدنا كالجامعة العربية في الوطن العربي .

ولما كان الغرب يبني ويؤسس المادية في مجتمعه كنا ولا زلنا نعيش في جمود وفراغ ثقافي حيث إننا كنا قد قصرنا في أن نصنع ثقافتنا من واقع شخصيتنا الحضارية التي تجمع بين المادة والروح .

لقد أصبحت المقولة المشهورة بأن العالم أصبح منفتحًا على بعضه البعض تتردد على كل لسان وأن العالم أصبح كالقرية الواحدة ، أي أن الأمم والثقافات أصبح بعضها منفتحًا على بعضه الآخر ، حيث يعمل الغرب على إذابة الثقافة بإطباعها ، وإذا حاولنا تقييم الثقافة الأوربية الغربية المعاصرة ـ دون أن يشمل ذلك الثقافات الشرقية الأخرى كالصين أو اليابان ـ فإنه مما لا شك فيه أنها قامت على أساس فكر مادي حيث عمل علماء الغرب من أجل ذلك فكل منهم وضح طوبة أو حجرًا في إشادة هذا البناء وتَتَابُع حلقاته ، وكانت هذه الجهود جميعها تعمل على إقامة ذلك الكيان المادي ، والمسلمون في غفلة عن أمرهم .

ولا شك أن هذا الكيان أو هذا البناء كان له إيجابياته في أمور كثيرة ومختلفة من جوانب الحياة منها التقدم في الإنتاج الآلي أو الصناعي أو التقني ، بالإضافة إلى ثورة المواصلات والاتصالات وثورة المعرفة التي غطت جميع ضروب الحياة من وجهة نظر العقل المادي إلا أننا بنفس الوقت لا يمكن لنا أن نغفل عن عيوبها وأخطائها الثقافية والاقتصادية والاجتماعية الخطيرة ، وخاصة في مجال العولمة الشاملة التي أتت بعد فترة العولمة الجزئية ، فالعولمة الشاملة أخذت تأت على أمر خطير وهو القضاء على الإنسان والإنسانية ذاتها [1] .

فلابد للإنسان المسلم أن يزيل عن نفسه ذلك الانبهار الذي اعتراه بسبب ما شاهده من متغيرات العصر ، وأن يساهم في دفع الأخطار التي تحدق به ، وبالإنسانية جمعاء .

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري ، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ، (ص١٦٢، ٣١٢، ٣١٤) .

لقد كتب كثير من علمائنا أن الشرقي بدافع رسالته نحو البشرية [١] جمعاء لابد أن يكون له دور في دراسة هذا الواقع المادي الأوروبي والعربي المعاصر وفهمه جيدًا والبحث عن وسيلة لإنقاذ نفسه وإنقاذ العالم من حوله كما يقول : مالك بن نبي في كتابه عن رسالة المسلم في القرن العشرين ، وقد نَقَد كثير من العلماء الغربيين ظاهرة التنمية في العصر الحديث فقال بعضهم : لقد انخدعنا بموضوع النمو والتنمية ، إن الشوارع العريضة والبنايات الشاهقة وزحمة السيارات وتكاثف دخان معامل النسيج والتكنولوجيا وتلويث البيئة [٢] لا تشكل مدنية ولا حضارة لأن الإنسان فَقَد معها روحه وتاه عن الهدف من وجوده .

ومن مظاهر تخريب الإنسان للبيئة بسبب كثرة اعتماده على التكنولوجيا الحديثة في الصناعة ونمطه الاستهلاكي فبالإضافة إلى انتشار نسبة كبيرة من ثاني أوكسيد الكربون التي تسبب ارتفاع درجة الحرارة على سطح الكرة الأرضية ، فقد قرأت في صحيفة محلية خبرًا يقول : «عودة إلى شريعة الغاب [٣] ، العالم يخسر ١٤٠ ألف كيلومتر من غاباته سنويًا ، فكيف يتنفس بلا رئتين؟!» .

وسأحاول فيما بعد كشف أسرار هامة قد سمعنا عنها كثيرًا مع محاولات نهضة أمتنا وهي ظاهرة تحرير المرأة في واقعها المادي الغربي وكشف التربة التي استقت منه جذور هذه الظاهرة المعاصرة ، وكلنا يعرف ما آلت إليه الأمور من خلال تأثيرات الأعمال التي سعت لتحرير المرأة في الشرق على الطريقة الغربية

---

(١) مالك بن نبي (علامة جزائري) رسالة المسلم في القرن العشرين ، دار الفكر بدمشق .

(٢) رينيه دوبو (إنسانية الإنسان) بيروت ، مؤسسة الرسالة ص ١٩ .

(٣) جريدة الحياة ، العالم يخسر ، ع ١٧٥٩٢ ، ع حزيران «يوليو» ٢٠١١م ، الموافق ٢ رجب ١٤٣٢هـ .

وذلك في أوساط شرقنا العربي والإسلامي .

في حين أننا لو قلبنا صفحات التاريخ إلى الماضي لوجدنا أن الإسلام كان له فضل السبق في تحرير المرأة تحريرًا حفظ لها إنسانيتها وعطاءاتها في هذا المجال لم يسبق له نظير في الشعوب المجاورة آنذاك .

حيث هدى الإسلام المرأة إلى الإيمان وجعل النساء شقائق الرجال وكل منهما يسعى إلى خدمة الأسرة والمحافظة عليها بما يدعم المجتمع وينال حظه من الآخرة .

وبعد أن عاشت مجتمعاتنا غفلة عن مسيرة التقدم التي بادر إليها الغرب ، فإذا بالصيحات التي تنادي بتحرير المرأة على الطريقة الغربية ينخدع بها بعض متنورينا المثقفين والمثقفات من وجهاء المجتمع .

لم يصمت علماء الشريعة والدين في مجتمعنا على ذلك فرأوا أن المرأة في بلادنا تحتاج إلى التحرير ليس بالطريقة الغربية ولكن بالطريقة التي حرر الإسلام المرأة فيها من الجاهلية وجعلها رمز العطاء لأسرتها ومجتمعها سواء بالفكر أو العاطفة أو تربية الأبناء وما يتضمن من خدمة المجتمع ، في حين أن الغرب جعلها متمركزة على ذاتها تصارع الرجل وتنسحب المرأة من وظيفتها الأسرية لتصبح في حالة عقم ثقافي وتاريخي واجتماعيثم تكون بعد ذلك منافسة للرجل وتقع فريسة حالة التمركز حول الأنثى » .

*****